

انحطاط الأمم

طبيعته وأسبابه

الانحطاط في الأمم حقيقة واقعة يشهد بها التاريخ . وهو في لبابه يعني أن الأمم يأتي عليها حين من الدهر تنسى فيه ثقافتها وعلومها وفنونها وصناعاتها وتقاليدها وشخصياتها ، أو تنسى الأنواع الرفيعة من هذه الأشياء وتفتن بالقليل السهل منها فتتخط حضارتها أي تنخفض عن المستوى العالي السابق الذي كان يحتاج إلى مقادير أوفر من الفنون والعلوم .

ويثبت التاريخ أن هناك علوماً كان الإغريق يعرفونها ثم اندثرت ولم تبعث إلى الحياة من جديد إلا في أواخر القرن التاسع عشر ، كما أن هناك نظريات علمية كان الصيغان في أثينا يعرفونها حوالي سنة ثلثمائة قبل الميلاد صار العلماء يجهلوننا حوالي سنة ألف بعد الميلاد .

وآثار المصريين القدماء وعادياتهم تثبت أن الأمم القديمة مرت بها عصور ذهبية ثم لأمر ما أو لأمر كثيرة طرأت عليها عصور أخرى أنستها أسباب رقيها القديم فانخفض فيها مستوى الحضارة .

يجب إذن أن نسلم بأن الحضارة تنحط ، فما هي الأسباب المؤدية إلى هذا الانحطاط ؟

من الأقوال المألوفة أن الأمم كالأفراد تهرم وتشيخ ، وأنه عندما تبلغ أمة ذروة رقيها فإنها بذلك تستكمل شبابها ثم تدب إليها الشيخوخة شأنها في ذلك شأن الفرد سواء بسواء . ولكن هذه المشابهة مع ما فيها من سهولة التفسير واغراء البديهة لا تركز على أساس . لأن الأمة ليست كالفرد وليس هناك ما يؤيد القول بأنها تشيخ ، إذ مادامت الأمة تحتفظ بثقافتها وريقها وتتنبه إلى الملاءمة بينها وبين العصر فإنها تظل محتفظة بحضارتها فلا شيء يدعو عندئذ إلى انحطاطها . وكثير من المؤرخين يعزون انحطاط الأمم إلى غارات الهمج ، وهذا صحيح فإن الهمج من التار قد قضا على حضارة العرب في بغداد ، كما أن غارات القوط والوندل والهون الذين غزوا الدولة الرومانية قد قضا أيضا على حضارة الرومان ، ولكن يجب أن نلتصق أسباب الانحطاط في كيان الأمة أي في أحشائها الداخلية قبل أن نرده إلى الغارة الأجنبية ، لأن الأمة الراقية المنبهة يجب أن يؤدي بها رقيها إلى أن تدخل في حسابها هذه الغارات الأجنبية وتستعد لمكافحتها وتأمين نفسها منها ، وغارات التار والهون والقوط

والوندل إنما نجحت وعممت الفوضى وأودت بالحضارة لأن هذه الحضارة نفسها كانت قد فسدت من الداخل وأصبحت كالبيضة الفاسدة تكسرها أهون الصدمات .

والحضارة تركز على الثقافة وما الثقافة إلا مجموعة المعارف والآراء والأخلاق والعادات والأنظمة . فإذا اختلفت الثقافة فلا بد من انحطاط الحضارة . وأول علامات الاختلال في الثقافة قلة الملازمة بين الثقافة القديمة والبيئة الجديدة . كأن يحدث مثلا حين يكون للأمة نظام معين لقواتها الحربية ثم تطرأ طوارئ تقتضى الزيادة في القوات أو التقيح في الآلات فيجند قادة الجيش ويرفضون هذه الزيادة أو هذا التقيح لأنهم ياتزمون ثقافة حربية قديمة لا تلائم العصر الجديد أو البيئة الجديدة فيكون الصدام وتكون الهزيمة . وإنما يحدث الانحطاط في الحضارة بمقدار رقيها ، فكما كانت الأمة راقية أو ممعنة في الرقي كان الانحطاط عظيما فادحا . ذلك لأن الرقي يناى عن البساطة ويتألف من عناصر مختلفة دقيقة في تركيبها ، دقيقة في توازنها وتآلفها . مثال ذلك مدينة القاهرة . كانت قبل نحو ستين سنة قليلة السكان بدائية العيش إلى حد ما ، وكان بها نحو ثلاثمائة أو أربع مائة سقاء يحملون الماء في قربهم كل يوم للسكان في بيوتهم . ومثل هذا النظام البدائي لا يمكن أن يختل إلا بجزرة عامة تقع بين السفارين . وحتى هنا ليس الاختلال عظيما . لأن صنع القرب من جلود الجداء وحمل الماء فيها من النهر إلى البيوت ليس فنا دقيقا يشق تعلمه . ولكن لو انتقلنا من هذه الحال الساذجة إلى حال القاهرة اليوم وهى تتروى بالماء من شبكة الأنابيب التى تمتد تحت أرضها وتحيلنا قبلة تقع على المركز الأصلي لهذه الأنابيب لعرفنا مقدار الاختلال العظيم الذى يحدث للسكان والقلق بل الفوضى التى تنفشى من انقطاع الماء عنهم . وقل مثل هذا في وسائل الإضاءة أو تزويد البيوت بالطعام وسائر الحاجات ، فانتكاس الحضارة إنما يعنى به الارتداد عن درجة معينة في ثقافة إلى درجة أقل منها . وكما كانت الأمة أقرب إلى سذاجة العيش كان انحطاطها بعيد الاحتمال ، بعكس ما لو كانت كثيرة الفنون دقيقة الصناعات فإن انحطاطها يكون عظيما عند ما تختل نظمها وتجد ثقافتها .

وللحضارة أقيسة ومثليات أخلاقية تنضبط بها فإذا اختلفت هذه الأقيسة انحطت الحضارة .
ولكن كيف تختل ؟

تختل بالترف . وواضح أن جميع الأمم التى بلغت ذروة حضارتها أخذت في الترف والانغماس في اللذات والانحراف في الشهوات . والترف يؤدي خدمة اجتماعية إذا كان التوازن لم يختل . لأن الترف في ذاته درجة من الرفاهية تعاو على المستوى العام . وهو ، أى الترف ، ينشأ بين الخاصة ولكنه قد ينتهى بأن ينتشر بين العامة ويدخل في عداد ألوان الرفاهية . ولكن إذا أقبلت الطبقة التى تتولى شؤون الأمة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والإدارية على الانغماس

فيه ثم دعاها الانفاس إلى الانحراف فانها تلهو عن الجهد وتركن إلى الخمول وتسرف في إنفاق المال فتفقد بذلك مكاتبا الارشادية للأمة كما أنها لا تستطيع بذل الجهود للحفاظ على مكاتبا ولا على معارفها وأقيستها .

كذلك تختل الأقيسة عند ما تتحارب الطبقات في الأمة الواحدة . كما يحدث بين العمال والمجولين أو بين الكهنة والشعب أو بين الموظفين والجمهور . فان لكل جماعة ما يسمى " الروح الجماعى " الذى يجعلها تحس أن لها شخصية مستقلة ومصصلحة مستقلة وكيانا مستقلا فاذا كثر التصادم بين الطبقات المختلفة وشعرت كل جماعة أن مصاحبها لا تنطبق على مصلحة طبقة أخرى اشتد التنازع فى الأمة وقد ينتهى الى حرب أهلية . والحرب الأهلية أدعى الى الفوضى من حرب تلتأ من غارة عدو أجنبي . لأن الأولى تشتت طبقات الأمة وتبدد أقيستها الأخلاقية والاجتماعية فى حين أن الثانية تربط بين عناصر الأمة المختلفة .

وهذه الأقيسة تختل أيضا بتوجيه جهودات الأمة الى غير نتيجة مثمرة . ونعنى بالأعمال هنا أن يؤدي كل مجهود إلى زيادة الصحة أو التعليم أو الرقى الأخلاقى أو الاجتماعى . وفى كل أمة مجهودات غير مثمرة تختلف درجات عمقها من صنع أدوات غير لازمة إلا للترفين الفاسدين إلى دراسة موضوعات عقيمة فى الجامعات . ولكن أثر هذا العمق لا يمكن أن يكون عظيما إلا إذا تجاوز الحدود المعقولة . أو هو بكلمة أخرى نسبي . فلا شك مثلا أن الأمة لن تحصى حضارتها إذا كانت تنفق واحدا فى المائة من دخلها على الترف . ولكنها تنحط إذا أنفقت خمسين فى المائة من دخلها على التجهيزات الحربية كما يحدث الآن فى بعض الأقطار الأوروبية . لأن إنفاق هذا المبلغ العظيم يحرم الأمة من أنواع كثيرة من الرقى كانت تستطيعه لولا هذه التجهيزات الحربية . وهذا بصرف النظر عما تؤدي إليه هذه التجهيزات من إيجاد طبقة تستحوذ على قوة ضخمة يخشى خطرهما على الأمة .

تختل الحضارة عند ما تقبل الأمة على الترف ويؤدي الترف إلى تحول طوائفها المرشدة ، وعند ما تختلف جماعاتها اختلافا قد يؤدي الى حرب أهلية ، وعند ما تتجه جهوداتها الى غير ما يوجب إلى الأعمال ، ثم عندما تطول هذه الحال السنين المتوالية نجد أن المدحر من الثقافة يتبدد لأنه لا يجد من يصونه من العلماء والفنيين وأرباب الصناعات . ثم إذا طالت هذه الحال جاء جيل جديد يجهل هذا المدحر من الثقافة فتتكسر الحضارة أى تهبط عن مستواها السابق .

ثم إذا طالت الحال أيضا وجدنا أن كل جيل يتخلف عن الجيل الذى سبقه حتى نصل إلى عصر الظلام .

ولكى نفهم هذه الأسباب التي تحط الحضارة يمكننا أن نتبع الانحطاط في درجاته المختلفة كما نراها في الأمم التي بلغت الذروة من حضارتها ثم شرعت في التدهور نحو الحضيض . فأول ذلك أننا نجد الأخلاق الخاصة أى أخلاق الفرد، تززع . فليس فيها ذلك التماسك السابق أو ليست لها تلك الصرامة أو الاستقامة التي كنا نجدها في القرون الأولى لرق الأمة ثم بلى ذلك تززع الأخلاق العامة . فالجمهور لا يثق بالموظفين ولا بالحكام . وعندئذ تضع ثقة الفرد في الضوابط الاجتماعية ومن هنا يبدأ الإضطراب فإن الفرد يشعر أنه لا ينتصِف إذا شكَا خصمه فيعمد إلى الانتقام الشخصى . وهو لا يثق بالجباة أو بالقضاة أو بالموظفين الإداريين فهو يعمد إلى الرشوة والخداع والاعتماد على قوته أو صوته . ومن هنا تفسو الجرائم وتكثر الانتقامات وتنتشر المصائب . ثم بعد ذلك نجد الحرب الأهلية التي تفتك بالأخلاق وتدمر المؤسسات وتعم الفوضى وتقطع التقاليد الحسنة . وهنا نجد على الدوام أن عدوا خارجيا لم يكن له شأن يذكر قد برز في لوحة التاريخ وانهز الفرصة وأغار مستعينا بالفوضى التي أحدثتها الحرب الأهلية . ثم ينتهى القلق وتستقر الأمة ولكن على مستوى منخفض . وهذه هى القرون المظلمة التي انتابت جميع الأمم تقريبا ولولا هذه القرون المظلمة التي انتابت عالم أوربا نحو ألف عام لكان العالم الآن أسبق من عالمنا الحديث بنحو خمسة قرون على الأقل .

وفي ضوء هذا الذى شرحنا يمكن أن نسأل : هل تؤدي الحروب الحاضرة أو المستقبلية إلى انقراض الحضارة أو انحطاطها ؟

إن الحرب الحديثة قادرة على التدمير السريع ولكنها أيضا قائمة على أساس العلم . فإذا شاء قادة الحرب الحديثة أن يحتفظوا للحرب بمستواها التدميرى العظيم فإنهم يجب أن يستعينوا بالعلم ويؤيدوا مؤسساته ويساعدوا على زيادة مكتشفاته . والحضارة العصرية إنما تنهض على العلم فلا يمكن إذن أن تؤدي حرب ما إلى انحطاط الحضارة . ولكن لا نستطيع أن نفعل الفوضى التي تعم الأمم المهزومة ثم جميع نتائج هذه الفوضى التي ذكرناها فيما سلف . كذلك يجب ألا نفعل أن التجهيزات الحربية الضخمة تستغرق معظم موارد الأمة التي كان يمكن أن تستخدم في رقيها المدنى . والنتيجة التي لا مفر منها أنه إذا كثرت الحروب وتوالت الفوضى في الأمم تآحرت الحضارة وانحطت عن مستواها السابق . وما تحتاج إليه الحضارة لكي ترقى ينحصر في إيجاد التعاون بين الأمم بدلا من التنازع وكذلك بين الأفراد في كل أمة .

(اعتدنا في كثير ما ذكرنا على فصل من كتاب "سيكولوجية المجتمع الإنسانى للأستاذ شارلس ا. الورد)